في سبيل الحلم

إكرام سي بلخير / الجزائر

على حبات الرمال الذهبية ، و بمحاذاة أمواج اليم العاتية ... راحت ترمي بخطاها تلك الفتاة ،متأملة في روعة البحر و تائهة بين طيات أمواجه المتلاطمة فتارة تسرح بتفكيرها نحو خبايا الذاكرة العميقة ، التي طالما أخفتها بين ثنايا السنوات ، و تارة أخرى تعود بها الأفكار إلى حاضر الحياة ، مر الزمان و أصبح ما عاشته ماضيا من الذكريات ... إيلين ابنة الأوراس ، صاحبة التاسعةِ و العشرينَ ربيعا ، خريجة معهد الفنون تخصص تصميم ، مصممة أزياء و صاحبة أكثر الماركات شهرة في البلاد على الصعيد الداخلي و الخارجي . إيلين فتاة من الطبقة الكادحة ، والدها رجل مسكين لا يملك من المال ما يعيل به نفسه و عائلته فعمله حمالا الإسمنت لم يكفله أو يكفل عائلته ، أما أمها فقد أفنت زهرة شبابها في العمل كعاملة تنظيف في بيوت الأثرياء ، و كل ذلك لتساعد زوجها و تحاول أن تمنح أولادها الثلاثة (ولد و ابنتان) الحياة التي يستحقونها بأي طريقة و لو كان ذلك شبه مستحيل . سارة تكبر إيلين بثلاث سنوات و عمر يصغرها بعام واحد . إيلين و هي فتاة صغيرة لم تعش طفولتها كباقي الأطفال في مثل عمرها و لم تظفر بحنان الطفولة و لم تحظ بنعومة الأظافر كما فعل أقرانها من الأطفال ، فهي فتاة عانت من الفقر و الحرمان ، اِضْطُرَّت لبيع المناديل الورقية في الشوارع لعلها تدَّخر قليلا من المصروف تتدبَّر به أمرها لتتمكن من مزاولة دراستها و لا تحرم منها هي الأخرى ...

من صغرها وهبها المولى عز و جل مَلَكَةَ الرسم ، و قد اكتشفت موهبتها تلك في سن مبكرة لكن ظروفها المعيشية لم تكن تسمح لها بأن تحلم بمستقبل واعد أو أن ترى نفسها يوما تتنافس لبلوغ السماء . لم تعر إيلين تلك الموهبة أي اهتمام زائد بل و كانت تعتبرها مجرد مؤنس في أوقات المحنة و حينما تضيق بها الدنيا تأوي إلى أوراقها البالية القديمة و أقلامها الرصاصية المتآكلة لترسم بها لوحات لو مُنِحَت فرصة الكلام لبكت ألما و حزنا على حال هذه المسكينة . ظلت ترسم و ترسم كلما اشتدَّ بها الحزن . إلى أن جاءتها يوما فكرة بعرض تلك الرسومات للبيع في إحدى الشوارع علها تجد من يشتريها منها و لو بمبلغ زهيد يعينها على استكمال مسيرتها و حصد قوتها ، فأهلها عزموا على منعها من الدراسة و إرسالها للعمل بأي طريقة كما فعلت أختها بحجة أن مصاريف دراستها في ازدياد و أنهم لم يصبحوا قادرين على دراستها. عرضت لوحاتها للبيع و بالطبع رآها المارة و كل اشترى ما أعجبه بمبلغ رمزي لكنه كان مهما جدا و كنزا ثمينا بالنسبة إلى إيلين ، و يوما بعد يوم صارت ترسم و تبيع تلك اللوحات التي لم تكن تعلم قيمتها الحقيقية في الشوارع ، و في ذات الوقت تستفيد من ذلك المال القليل الذي تجنيه من بيع رسوماتها في مصاريف دراستها ، إلى أن تمكنت من بلوغ المستوى النهائي.

في ذلك اليوم تم تنظيم يوم مفتوح لمعرض الرسم في ثانويتها و قد كانت مشاركة فيه بإحدى لوحاتها ، بعد إصرار شديد من أحد أساتذتها الذي آمن بموهبتها ، و كما هو الحال زارهم فنانون و أساتذة رسامون ، و بحكم أن إيلين تنتمي لفئة الفقراء فقد تم تهميش لوحتها و وضعها في زاوية بعيدة بين زوايا المعرض ، فالأولوية كانت لأصحاب الطبقة المخملية . لكن الأقدار شاءت أن تقع عين أحد الفنانين على لوحتها فأبدى إعجابا شديدا و تعلقا بها ، حتى أنه طلب حضور رسامة هذه اللوحة و طلب لقائها شخصيا قائلا : أريد مقابلة صاحبة هذه اللوحة ، استدعوها علني أنال شرف مقابلتها و التمتع بتبادل أطراف حديث الفن معها . تقدمت نحوه بخطوات خجلة مطأطئة رأسها.

الأستاذ: مالكِ يا بنيتي تخجلين من رفع رأسكِ عاليا في السماء ، هيا ارفعي رأسكِ و اعلمي يا ابنتي أنكِ اليوم أبدعتِ في وصف الجمال بريشة من ذهب رسمتِ لكِ بها طريقا حريريا نحو مستقبل مشرق بإذن الله . استغرب الجميع من فعلته تلك ، فهو لم يعر أي اهتمام لشكلها الذي يوحي بشدة فقرها أو حتى لثيابها البالية القديمة ، و طفق يسألها عن موهبتها و منذ متى و هي تتمتع بها و إن كان لها رسومات أخرى غيرها . و ما زاد الأمر دهشة و أثار ذهول جميع الحضور هو عرضه مبلغا خياليا لشراء تلك اللوحة ، اندهشت إيلين و لم تتمالك نفسها في تلك اللحظة حتى كاد يغمى عليها من الذهول فهي لم تر في حياتها شخصا يقدر موهبتها و يعتبرها فنا حقيقيا كهذا الشخص الغريب عنها ، و كما كان الحال، اشترى السيد المحترم لوحتها ، ثم إن الأمور لم تتوقف هنا ، إذ أنه بقي على تواصل دائم معها و ظل يمنحها الدعم المادي و المعنوي و هذا ما جعلها تزداد حبا و تعلقا

بالفن و لهفة لارتياد معهد الفنون فذلك المحترم تبين أنه فنان و أستاذ بمعهد الفنون و يدعم بشدة المواهب الشابة ...

حصلت على شهادة التخرج بالمعدل الذي يؤهلها للقبول في معهد الفنون ، و في تلك الفترة كانت إيلين قد اتخذت من موهبتها وسيلة لدخول عالم التصميم من الباب الواسع ، فقد كانت تقضي ليال طوال تصمم أزياء و تعدلها ، و بدأت ترسم طريقا نحو تحقيق حلمها يستضاء بنور صمودها أمام المصاعب و اجتيازها للعقبات ، لم تستسلم يوما و ظلت تكافح باستمرار لنيل ما تصبو إليه . لطالما حرمت على نفسها الأكل و الشراب لتوفر لنفسها المال الكافي لشراء مستلزمات دراستها ، ظلت تناشد ربها و تبكي ساعات طوال فوق سجادتها ، أن يا رب أعني على استكمال ما تبقى من خطوات حلمي ، يا رب وحدك تعلم حالي فلا تجعلني أتحسر وأبكي ألما فقد حلمي الوحيد في هذه الدنيا...

تمكنت إيلين بعد سنوات من الولوج إلى عالم التصميم عن طريق إحدى الشركات و قد أثبتت نفسها في وقت جد قصير عن جدارة و استحقاق حتى شاع اسمها بين أشهر المصممين و ذاع صيتها في البلاد ، و تمكنت بعد أعوام قليلة من افتتاح ماركة أزياء خاصة بها و أصبحت شركتها تنافس أشهر الشركات و دخلت عالم الفن من أوسع أبوابه و عمرها لم يتجاوز الثلاثين عقدا ! أوليس من العجب !

أحيانا يقضي الإنسان عمره بفكر محدود ، و يبني بينه و بين أحلامه أسوارا و سدود ، يتحجج بالواقع المرير و الطريق المسدود ، لكن الله عز و جل من حكمته أن جعل لكل إنسان قسمة من نعيم الدنيا متخفية بين ثنايا الحياة ، و وجب علينا البحث عنها

لأبعد الحدود ، لا تقنطوا من رحمة الله فكل شيء مسير برحمة رب الوجود ، صدق من قال نحن قوم نبحث عن المفقود حتى نفقد الموجود ، إن الله يوم خلق الإنسان جعل فيه غريزة المحاربة و عدم الاستسلام و الركود ، و اعلموا فقط أن الصمود هو سلاح البشر على مر العقود ... فهيا قف على ناصية الحلم و قاتل ...